

القيم التربوية ودورها في قصص الأطفال^١ دراسة في قصص كامل الكيلاني

حسين كياني*

بشرى سادات ميرقادري**

الملخص

إن الأطفال مرآة المجتمع الراهن، ومشروع المستقبل، وصورته القادمة؛ فيجب الاهتمام بهم والتخطيط لهم ولأدبهم لغرس الأواصر التربوية فيهم بأحسن صورة من الصور. وتعدّ القصص هي أفضل وسيلة للوصول إلى ما يهذب شخصيتهم ويمهدهم للمستقبل. وتمثّل هذه المقالة محاولة متواضعة لإلقاء الضوء على القيم التربوية في قصص الأطفال متمثلة في قصص كامل الكيلاني. هذه المقالة بعد مقدمة في الأهداف التربوية من أدب الطفولة، والقيم التربوية المنشودة في قصص الأطفال، قامت بتحليل دور القيم التربوية في قصص كامل الكيلاني معتمدة على المنهج الوصفي والتحليلي في دراستها. وأخيراً وصلت المقالة إلى أن كامل الكيلاني يهتم بالقيم التربوية ويشرح للطفل دقائق الحياة وأسرار النفوس، لتستثير له السبل فيمشي على الهدى. ولعلّ دافع الكيلاني الأول لكتابة القصة للأطفال هو الأهداف التربوية الأخلاقية. فهو يهتمّ قبل كلّ شئّ ببيان القيم الدينية والروحية والخلقية في قصصه، ثمّ يهتمّ بالفضائل الأخلاقية وبالقيم الاجتماعية؛ فيحثّ المخاطب لاكتسابها في كلّ فرصة بين سطور قصصه.

الكلمات الرئيسية: أدب الطفولة، القيم التربوية، كامل الكيلاني، قصص الأطفال.

المقدمة

١- بيان المسألة

أدب الطفولة أو أدب مرحلة الطفولة من الأنواع الأدبية المتجددة في الآداب الإنسانية. فالطفولة هي الغرس المأمول لبناء مستقبل الأمة. «إن معرفة الطفل والتعرف على خصائصه ومتطلباته وكيفية التعامل معه منذ تفتح شخصيته، وخلال المراحل العمرية مطالب ملحة وأساسية

١- تاريخ التسلم: ١٣/٢/١٣٩١ هـ. ش (١٥/٨/٢٠١٠ م)؛ تاريخ القبول: ٢٥/٦/١٣٩١ هـ. ش (٢٩/١/٢٠١١ م).

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شيراز.

** طالبة الدكتوراة في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان.

وضرورة لجميع من يهتمهم أمر بناء الأجيال من الأدباء والمعلمين والمرشدين» (خلف الله، ١٩٩٨م، ص ٩)؛ فإن «أدب الأطفال هو الوسيلة المثلى للوصول إلى عقول الصغار، بغية تنمية القدرات، وصل التفكير والتعبير، وتحسين الأداء، وتنمية ملكة الإبداع، والإحساس بالجمال، والارتقاء بالمشاعر، وتحبيب الهوايات إلى النفس البريئة المتفتحة على الحياة» (قرانيا، ٢٠٠٣م، ص ٩).

لا يوجد مجتمع إنساني يخلو من القيم التي تعطي حياة أفراده معنى وغرضاً، وتنشأ هذه القيم في المجتمع استجابة من الأفراد للقوى والضغوط التي تفرضها البيئة. ويتشبه الأفراد بهذه القيم عن وعي منهم؛ كما أنهم ينقلونها ويلتزمون بها في سلوكهم، وتتوحد بها الشخصيات أثناء عملية التنشئة الاجتماعية. كل قيمة تؤدي وظيفة في البناء الاجتماعي لصالح الشخصيات المكونة للمجتمع ولصالح المجتمع كله، وتعمل على التوافق الاجتماعي وتلح عليه؛ فتوافق الأشخاص مع القيم السائدة وتوحدهم معها أمر ضروري لتؤدي القيم وظائفها (حلاوة، ٢٠٠٠م، ص ١٠٩).

تحتل القصة مكانة متميزة في أدب الأطفال، وتعدّ من الفصول الأدبية المؤثرة على السلوك القيمي للأطفال في المواقف اليومية، وتعتبر أفضل وسيلة تقدّم عن طريقها قيماً دينية وأخلاقية ومعلومات علمية أو تاريخية أو جغرافية وتوجهيات سلوكية أو اجتماعية. فالأطفال «يميلون إلى القصة ويستمتعون بها سواء كانت مسموعة أو مقروءة، وتجذبهم شخصياتها وحوادثها التي تثير مشاعرهم وتدغدغ خيالهم، وتؤثر في اتجاهاتهم وتصرفاتهم عن طريق الأفكار التي تطرحها والموضوعات التي تعالجها، ضمن أسلوب يتناسب مع مداركهم وقدراتهم العقلية والنفسية واللغوية» (الشماسي، ١٩٩٦م، ص ٣٣).

فإذا كانت المسؤولية في القديم محصورة - إلى حدّ كبير - بالوالدين، فإنّها اليوم تشتمل عدداً أكبر من الناس، مع بقاء المسؤولية الأولى والأهم للوالدين. فالمدسة ووسائل الإعلام والقصص و... تترك أثرها على الطفل. وأما أدب الأطفال، فإنّه من أهم الوسائل التي تسهم في عملية البناء التربوي، والحماية من الأخطار التي تهدم التربية وتفسد الفطرة السليمة (برغش، ١٩٩٦م، ص ١٢٤). والكيلاني، رائد قصة الطفل في الأدب العربي، اهتمّ بالقصة في انتقال المقاصد والغايات المختلفة إلى الطفل، واستطاع في قصصه أن تجمع بين هذه المقاصد والغايات؛ فهناك الغاية التربوية والأخلاقية المتمثلة في الوعظ والإرشاد، والغاية التعليمية المتمثلة في تقديم معلومات عن الحيوانات والطيور وتعريف الطفل بالآداب العالمية. تهدف هذه الورقة البحثية إلى دراسة القيم التربوية في أدب الطفولة عامة، ثم دراستها وتطبيقها على قصص كامل الكيلاني، خاصة في جوانب لم يتمّ التعرض لها من قبل.

٢- الدراسات السابقة

اهتم الباحثون حالياً اهتماماً واسعاً بأدب الطفل ومستقبله، وشهدت المكتبات دراسات جديدة في شتى الموضوعات التي تتصل بأدب الطفل. هناك دراسات متعددة تناولت أدب الطفل القصصي عامة وأدب كامل الكيلاني خاصة؛ منها:

- أدب الطفولة بين كامل الكيلاني ومحمد الهراوي، (١٩٩٤م) لأحمد زلط. وقد تكلم فيه عن ريادة كامل الكيلاني لأدب الطفولة. اقتصر على الأشعار والأناشيد، مع مقارنة بين الكيلاني والهراوي دون التعرض لقصص الأطفال.

- الأدب القصصي للطفل (منظور اجتماعي نفسي)، (٢٠٠٠م) لمحمد سيد الحلاوة الذي خصّ الفصل الأول من كتابه بالأهداف التربوية لقصص الأطفال، والفصل الثالث بالقيم التربوية في قصص الأطفال.

- مقدمة في ثقافة وأدب الطفل، (١٩٩٥م) لفتحاح محمد دياب الذي تناول أهداف القصص الموجهة للأطفال في فصل مستقل.

- قصة الطفل... كامل الكيلاني نموذجاً، (٢٠٠١م) ليحيى خاطر. قام الكاتب فيه بالتحليل الفني لبعض قصص الكيلاني، ويتعرض لقصص شكسبير موجزاً.

وكل هذه الدراسات تتحدث عن القيم التربوية ودورها في الأدب وخاصة أدب الطفل، أو تتطرق إلى كامل الكيلاني وحياته وعلاقته بأدب الطفل. وهذه الورقة البحثية تحاول دراسة قصص كامل الكيلاني من جهة تضمنها القيم التربوية، وتحليلها دورها في قصصه.

٣- أسئلة البحث

يسعى هذا البحث الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما هي أهم القيم التربوية في قصص الأطفال عامة؟
- ما هو دور القيم التربوية في قصص كامل الكيلاني؟
- وما هي أهم القيم التربوية التي اهتم بها كامل الكيلاني؟

٤- ضرورة البحث

تظهر ضرورة البحث في نمو الاهتمام بالطفولة عامة وأدبها خاصة؛ لأن هذا الأدب يلعب دوراً مهماً في تشكيل شخصية الطفل. وفي إنتاج كامل الكيلاني كمّاً كبيراً من القصص وهو رائد قصة الطفل في الأدب العربي ولهذا قام هذا البحث بدراسة القيم التربوية في قصص الأطفال عامة وقصص الكيلاني خاصة.

٥- منهج البحث

نَهَجَ هذا البحث المنهج الوصفي - التحليلي دليلاً للدراسة، تأسيساً على هذا المنهج اختارت الدراسة بعض قصص كامل الكيلاني التي غلبت عليها الأهداف التربوية ودرسها واستخرجت منها القيم التربوية المنشودة لأدب الطفل معتمدة على الدراسات والكتب في علم النفس والعلوم التربوية ثم قام بتحليلها. جدير بالذكر أن عدد القصص المختارة ثلاثة عشر قصة؛ فهي القصص التي تحتوي على المضامين التربوية، فالدراسة استخرجت هذه المضامين من القصص مهما تكن قليلة بالنسبة إلى بعضها، ورتبها في مواضيع محدّدة.

هناك تعاريف متنوعة وآراء كثيرة من الباحثين في أدب الطفولة وهذا الاختلاف ينشأ من التعاريف المختلفة حول الأدب الطفل.

وأما التعريف الذي يفضّله البحث ويعتمد عليه، فهو ما أشار إليه أحمد نجيب في كتابه *أدب الطفل علم وفن* حيث يقول:

يمكن أن نجد لأدب الأطفال مفهومين رئيسين: أدب الأطفال بمعناه العام وهو يعني الكلام الإنتاج العقلي المدون في كتب الموجهة لهؤلاء الأطفال في شتى فروع المعرفة.. وأدب الأطفال بمعناه الخاص وهو يعني الكلام الجيد الذي يحدث في نفوس هؤلاء الأطفال متعة فنية.. سواء أكان شعراً أم نثراً.. وعلى هذا فإننا نجد أن أدب الأطفال الذي يضم قصص الأطفال ومسرحياتهم وأناشيدهم وأغانيتهم وما إلى ذلك، إنما هو أدب الطفل بمعناه الخاص (نجيب، ١٩٩١م، ص ٢٧٨-٢٧٩).

الإطار النظري للبحث

لا تكون غاية أدب الأطفال إذكاء الخيال عند الصغار فقط، لكنّها تتعداه إلى تزويدهم بالمعلومات العلمية والنظم الاجتماعية والعواطف الدينية والوطنية، وإلى توسيع قاموس اللغة عندهم وإمدادهم بعادة التفكير المنظم، ووصلهم بركب الثقافة والحضارة من حولهم في إطار شائق وأسلوب من التعليم والمشاركة، وهو سبيل إلى التعايش الإنساني، وطريق لمعرفة السلوك المحمود، وأداة لتكوين العواطف السليمة، وأسلوب يكشف به الطفل مواطن الصواب والخطأ، ويطلع على حقيقة الحياة وما فيها من خير وشر.

(خرسات، ١٤٢٤هـ، ص ٧٨)

علم النفس يعرف القيم بأنها تنظيمات لأحكام عقلية انفعالية معممة نحو الأشخاص والأشياء والمعاني التي توجه رغباتنا نحوها... فالقيم هي كلّ الصفات ذات الأهمية البالغة للنواحي السيكولوجية والسوسولوجية أو الأخلاقية أو الجمالية وتتصف بالجماعية (را: حلاوة، ٢٠٠٠م، ص ١١١-١١٢).

تعدّ القيم التربوية إحدى مرتكزات العمل التربوي، بل هي من أهم أهدافه ووظائفه: «والطفل في حاجة لأن يتعلم كيف ينبغي أن يسلك، ولا يجب أن يقتصر في ذلك على نقل المعرفة الخلقية، بل تكوين وتنمية العادات والمهارات الخلقية» (السابق، ص ١٢٢).

يمكن عرض عدد من هذه القيم التربوية فيما يلي:

١. احترام الفرد وأدميته وحرية؛
 ٢. الوفاء والاحترام للوالدين والتماسك الأسري بين أفراد الأسرة الواحدة؛
 ٣. وحماية المجتمع والمشاركة في تنميته وتقديمه؛
 ٤. الدعوة للخير والنهي عن المنكر ومقاومته؛
 ٥. سيادة القيم الدينية الروحية والخلقية بين الناس؛
 ٦. احترام ثقافة المجتمع وقيمه وعاداته وتقاليده؛
 ٧. الحث على الفضيلة ومقاومة الرذيلة؛
 ٨. البعد عن الخوف والرعب والقلق (السابق، ص ١٢٢-١٢٨).
- الكاتب الذي يهتم بالقيم التربوية في قصصه يجب عليه أن يراعي الأمور التالية في كتاباته:
- تكوين العقيدة وتثبيتها في نفس الطفل شيئاً فشيئاً؛
 - الحرص على غرس شعور المحبة للآخرين والتعاون معهم والخضوع في كلّ علاقاته وتصرفاته؛
 - تربية الجانب العلمي وغرس حب العمل والإنتاج، مع الحرص على النظام والترتيب؛
 - غرس المحبة والاحترام والمودة للوالدين وتحقيق معاني الطاعة والسكينة؛
 - غرس محبة الإخوة وحبّ التعاون معهم، والتضحية من أجلهم، والشعور بالرباط الأسري مع محبة ذوي الأرحام والحرص على صلتهم ومحبة الناس جميعاً؛
 - حسن الخلق، والصبر، ومحبة الآخرين، وعدم الثرثرة أو التكبر، واحترام الكبار ورحمة الصغار، وإنزال الناس منازلهم، ومعرفة حقوق الآخرين، ومحاربة الآفات الاجتماعية والغيبة والكذب (را: بريغش، ١٩٩٦م، ص ١٢٤-١٢٨).

بما أن أدب الطفل يؤدي دوراً أساسياً في بناء شخصية الطفل تربوياً ولغوياً ونفسياً وعلمياً فكرياً ويشغل مساحة كبيرة من اهتمامات الطفل اليومية، فيجب على أدب الطفل أن يتجه إلى تأصيل هذه القيم التربوية وبثها في هذا الأدب؛ ومن ذلك كله تدرك أهمية هذا الأدب من الجانب التربوي.

كامل الكيلاني والقيم التربوية

أثار كامل كيلاني - ولم يزل - اهتمام الباحثين في التاريخ الأدبي المعاصر، وخصوصاً في الفترة الأدبية الخصبية التي قُدِّر له العيش فيها مع مطلع القرن الماضي إلى العقد السادس منه. ومعاشته لكل الأحداث السياسية والأدبية والشعبية: ابتداءً من سقوط الدولة العثمانية، ومشاهداته للأحداث التي سادت خلال الحرب العالمية الأولى ومن ثم الثانية، وما تخللها من ثورة مصرية شهيرة على الاحتلال الإنكليزي في أواخر العشرينيات من القرن الماضي، وصولاً إلى ثورة الضباط الأحرار وسقوط الملكية في وطنه مصر ومن قبلها سقوط فلسطين والقدس بأيدي الغزاة. وفي هذه الأجواء المحتشدة، نشأ كامل كيلاني إبراهيم كيلاني في شرق القاهرة، وفي «حيّ القلعة» الذي يتميز عن غيره بعطر التاريخ والآثار والمساجد الإسلامية الشهيرة.

تعلق في أوان حياته بحفظ الشعر. وبعد الحصول على شهادة البكالوريا من مدرسة القاهرة الثانوية عكف على دراسة الإنجليزية والفرنسية، وظلّ يختلف إلى دروس الأزهر للتزود بعلوم اللغة والمنطق والأدب. وفي عام ١٩٢٧م أطلق كامل الكيلاني الشرارة الأولى في ميدان التأليف القصصي للأطفال العرب، عندما أصدر قصته الشهيرة *السندباد البحري*.

وفي عام ١٩٢٢م انضم لرابطة «الأدب الحديث» ولنشاطه الأدبي الملحوظ. عمل سكرتيراً عاماً لها من عام ١٩٢٩ إلى عام ١٩٣٢م. وفي ٩ أكتوبر عام ١٩٥٩م توفي كامل الكيلاني بعد حياة أدبية حافلة بنتائج المميز للأطفال، وأدبه المكتوب في عالم الكبار (را: زلط، ١٩٩٤م، ص ٩١).

يؤكد الكيلاني أن في قصصه عبراً يمكن للمعلم أن يستخلصها بسهولة لتلاميذه. وهو يرى أنّ الهدف التربوي هو الأهم؛ فكل والد حريص على تربية أطفاله وفائدتهم، ويكابد مثلما يكابد الكيلاني، ويلقى من الحرج مثلما يلقي. فكان ذلك أقوى حافز له على الاضطلاع بحمل هذا العبء، وأكبر مشجّع له للمضي في هذا الطريق بلا تردد. «لا يُلقى كلامه دون وضع آلية محددة دقيقة للتعامل مع الأدب القصصي الخاص بالطفل؛ حيث يعتبر القصة أداة للتربية على وجه الخصوص. ويرى الكاتب مريباً قبل أن يكون أديباً، فهو ينتهج أسلوباً قائماً على توضيح حقيقة الحياة للأطفال» (البكري، ٢٠٠٦م، ص ٧٧).

من أجل ذلك، لقي تأييداً من كبار رجال التربية والمدرسين والآباء. فهو يسعى إلى أن يشرح للطفل دقائق الحياة وأسرار النفوس لتستتير له السبل فيمشي على هدى، ويريد أن يُريه عاقبة الحسد، ومغبة الحقد، وآخرة الغدر، وكيف تنتهي هذه الخلال بالوبال على أصحابها، وتُنزلهم من أسمى درجات المجد إلى أحطّ دركات المهانة والشقاء، وأسفل منازل الهوان. ويسعى إلى أن يُري الطفل مصداق هذا، ويعرفه كيف ينتصر الحق آخر الأمر، ويخفيق علمه. ثم يلقي الآثون ما هم أهل له من العقاب والتنكيل، جزاءً وفاقاً لما اقترفوه من الإثم وارتكبه من عدوان.

وهو يدعو إلى عدم الاستهانة بما تفرضه الأخلاق الفاضلة من أدب الخطاب وما إليه، ويطالب بقصص «لا تصطدم والأخلاق الفاضلة القويمة». ويرى ذلك بمثابة «الحمل والثقل». ولعل دافعه الأول للكتابة الأهداف التربوية الأخلاقية. فقد كان يعتبر أن مؤلفي «كثير من القصص قد أسفوا إسفاً شديداً، لا يعدله إلا إسفافهم في لغتها وأسلوبها. وقد كتبها لجمهور العامة، فلم يراعوا فيها أي اعتبار أخلاقي، ولم يتورعوا عن خوض كل موضوع» (البكري، ٢٠٠٦م، ص ٧٧).

إن مجموعات الكيلاني القصصية تسعى لتحقيق هدف تربوي. فغاياته غرس الفضائل والمثل العليا التي اختارتها الجماعة، وتوجيه الطفل العربي نحو أنماط السلوك والقيم الاجتماعية والمعايير الأخلاقية، والتمسك بكل ما هو إيجابي منها، ونبت كل ما هو سلبي.

يؤكد الكيلاني على دور بعض قصصه في التركيز على الآثار النفسية وتثبيت الفضائل؛ وذلك عندما يقول:

وأنت إذا تدبرت هذه القصص حق التدبير، وجدتها موافقة لما يظهر حولك من أخلاق الناس وغرائزهم. فهي إنما تصف طبعاً مكيته وغرائز أصيلة ثابتة تلبس الناس، وتتصل بهم في كل عصر ومصر. وسترى في هذه المجموعة التي تختيارها لك أمثلة عليا تحبب إليك الفضيلة، وتبين لك مزاياها وحسن آثارها ما يزيدك تمسكاً بما طبعته عليه من نبيل الخلال، وكريم الخصال، وحميد السجيا، ومحمود الطبايع، ومرضي الأخلاق (السابق، ص ٨٥).

القيم التربوية مبعثرة في كتب كامل الكيلاني، وهو يحاول أن يعرضها للأطفال كأب حنون. فبعد استقراء الكتب المختارة له وقراءة القصص فيها واستخراج الأهداف التربوية، وصل البحث إلى القيم التالية:

١- الوفاء والاحترام للوالدين والتماسك الأسري بين أفراد الأسرة الواحدة:

الطفل في حاجة إلى أن يتعلم كيف ينبغي أن يسلك أمام الوالدين والأسرة؛ فالاجتماع الأسري أول اجتماع دخل فيه الطفل وأهمه طبعاً. فكمال الكيلاني يخصص همه الأكبر ببيان أهمية الأسرة والمعاملة الحسنة معها. فيبدأ قصته باسم «عبدالله البري وعبدالله البحري» بإشارات خاطفة وظريفة ومؤثرة في نفس الوقت، إلى التماسك الأسري والوفاء والاحترام بين الوالدين والأولاد؛ حيث يعبر عن أحاسيس عبدالله الصبياد حين ماتت زوجته ويقول: «وما زال كذلك حتى ماتت زوجة؛ فحزن لموتها أشد الحزن، ولكنه علم أن الحزن لا ينفع؛ فأسلم أمره لله، وصبر على قضائه، ورضي بما قسمه له» (الكيلاني، ١٩٩٨م، ص ٣).

فحزن البطل بعد موت زوجته يرشدنا إلى حبه لها في حياتها والتماسك الأسري فيما بينهما، والكاتب يشير أيضاً بصورة مباشرة إلى صفات حسنة؛ كالصبر أمام المصائب والرضاء بما قدره الله.

والكيلاني يؤكد على التماسك والمحبة بين أفراد الأسرة والحث على قبول المسؤولية، حيث يقول:

وذهب - في اليوم الثاني - مبكراً إلى البحر، بعد أن أوصى ابنته "أمينة" بإخوتها. وكانت أمينة بنتاً مؤدبة ذكية، فعُنيت بإخوتها خير عناية، وقد أصبحت لهم - بعد موت أمها - والدة ثانية، تغمرهم بعطفها وحنانها، وتؤسّسهم، وتسهر على خدمتهم، وتقوم بكل ما يحتاجون إليه» (السابق، ص ٤٣).

وهو يشير إلى الصفات المحبذة للطفل؛ ف«أمينة» مؤدبة وذكية ولا تتكاسل في العناية بإخوتها. فالكيلاني لا يستهدف الطفل ولا يخاطبه ببيان الميزات الخلقية الحسنة، بل يشير إلى هذه الميزات من خلال مكانة أمينة في الأسرة؛ فهي عون لأبيها بعد وفاة أمها، وهي تقبل المسؤولية وتهتم بإخوتها. فالطفل بعد قراءة هذه السطور يرجع إلى نفسه، ويقارن خصائص الخلقية لدى أمينة بخصائصه الخلقية في البيت وتجاه الأسرة. فلهذا النوع من الخطاب ضمن الكلام أثر كبير في غرس الأواصر التربوية في الطفل.

٢- حماية المجتمع والمشاركة في تنميته وتقديمه

يعبر كامل الكيلاني عن مهمة حماية المجتمع والدفاع عنه في قصة صراع الأخوين؛ حيث يتكلم عما يتمناه الملك العجوز: «وكان أكبر ما يتمناه الشيخ "بهشما" أن يرى حَفدته متّحدين أقوياء، يذودون عن وطنهم، ويردّون عادية المعتدين ويطش الغزاة المغيرين» (الكيلاني، ١٩٧٣م، ص ٧). فالغاية المتصورة لدى «بهشما» أن يرى الاتحاد والذود عن الوطن وردّ بطش المغيرين متجليةً في أحفاده.

وهكذا ينقل الكاتب هذه الصور والقيم إلى ذهن الطفل القارئ أو المستمع. فغاية أبطال القصص عادة قريبة من الغايات المنشودة في الحياة. ويشجّع الكاتب الأطفال على العدل بما يمثّل لهم عدل الملوك في قصصه؛ كما يقول في القصة نفسها:

ثم عادوا إلى وطنهم، حيث أقاموا العدل بين الناس، ونشروا بينهم روح الصّحح والرّحمة والإحسان، ووقفوا على الإصلاح جهودهم، فعلا شأنهم، وثبت ملكهم، وعزّ سلطانهم، وكثر أنصارهم، وخلا الجوّ لهم بعد أن اندحر حسّادهم وهلك أعداؤهم. وصحبتهم عناية الله وتوفيقه (السابق، ص ٩٦).

فعلوّ شأن الأبطال هو نتيجة جهودهم في إقامة العدل ونشر روح الصّحح والرحمة وإصلاح المجتمع. ويعبّر الكاتب عن نفس المضمون في قصة الوزير السجين قائلاً: «و لو كان الأمر موكولاً إلى ذلك المستبدّ الطاغية، لزلزل حكمه، واضطرب أمره في وقت قصير؛ لأنّ العدل أساس الملك، والبغي مرتته وخيم» (الكيلاني، ١٩٩٧م، ص ٤). فهنا يشير الكاتب مباشرة إلى عاقبة من يظلم ويحكم على الناس باستبداد والطغيان.

ويشجّع الأطفال في قصة نارادا على حبّ الوطن، بقوله عن لسان بطل القصة «نارادا»: «سأقضي على الدبة، سأحمي الوطن، كما حماه أبي!» (الكيلاني، دت، ص ٥). وهذه صورة ساذجة من دعوة الكاتب المخاطب إلى حبّ الوطن وحمايته.

٣. سيادة القيم الدينية الروحية والخلقية بين الناس

كامل الكيلاني يعبّر في كثير من قصصه عن القيم الدينية الخلقية والروحية بلسان بسيط يفهمه الطفل، والذي يؤثّر في باطنه ويهيئ روحه لنموّ شجرة الإسلام. ففي قصته عبدالله البري وعبدالله البحري يحاول أن ينقل القيم الروحية إلى المخاطب؛ حيث يقول: «فحزن عبدالله الصياد أشدّ الحزن، وتألّم لسوء بخته. وقال في نفسه: إنّ الفرج يأتي بعد الشدة، ولابدّ من الصبر؛ فإنّ الله سبحانه لن يتركني وأولادي بلا قوت، في هذا اليوم الذي لم أر له شبيهاً طول عمري» (الكيلاني، ١٩٩٨م، ص ٥).

ففي هذا المقطع من الكلام يدعو المخاطب إلى الصبر وإلى اليقين أنّ الله لن يترك عباده ويحميمهم، لكن على العباد ألا يستسلموا أمام المصائب، ولا يقنطوا من رحمة الله. وحيث يقول:

وكان عبدالله الخباز - صاحب الفرن - رجلاً محسناً كريماً محباً للخير. فلما رأى عبدالله الصياد واقفاً أمام دكانه محزوناً متألماً ينظر إلى الخبز بلهفة وحسرة، عرف أنّه فقير محتاج جائع، وأدرك أنّ نفسه تشتهي الخبز، ويمنعه الخجل والحياء من السؤال. فناداه برفق وهو يتسم له: "مرحباً بك أيها الصياد، تعال إليّ أيها الرفيق العزيز، هلمّ يا صاحبي، فخذ ما تحتاج إليه من الخبز" (السابق، ص ٧٦).

فيتلقّى المخاطب كثيراً من المعارف والقيم الخلقية؛ كتفويض الأمور إلى الله تعالى وحسن الخلق والقول المعروف والحبّ للخير والحياء من السؤال. فهذه القيم تنتقل إلى الطفل بصورة غير مباشرة، وتشكّل ثقافة الطفل.

وفي الواقع أثر هذا الخطاب غير المباشر أكثر من المباشر؛ لأنّ الأطفال لا يحبّذون النصائح المباشرة، ولا يهتمون بما يأتي في المواعظ من القيم الخلقية، لكنّنا المواعظ الخفية بين سطور القصص تجذبهم نحوها وتغيّر خُلقياتهم على أساسها.

والبطل في قصة العلبة المسحورة يصلّي صلاة الشكر بعد أن أنجز عمله بالتوفيق: «بادر إلى أن يتوضأ، وأن يؤدّي صلاة الصبح حاضرة. قبلها صلّي ركعتين، شكراً لله على ما وقّعه إليه في ليلته» (الكيلاني، ١٩٨٨م، ص ٢٠). وهذه السطور تعلّم الأطفال ألا ينسوا الله في الصعوبات ولا في التوفيقات؛ فبعد كلّ فوزٍ على الإنسان أن يشكر ربّه على ما وقّعه في إنجاز عمله.

ومن الملاحظ أن الكيلاني كان وقياً بالأسلوب القرآني باعتباره النموذج اللغوي والأسلوبي الأخلاقي، فيوحى بعض القيم الخلقية والتربوية التي استخدمها بالمصدر القرآني. فالجمل التي استخدمها مشحونة بالمعاني القرآنية السامية.

٤- الحث على الفضيلة ومقاومة الرذيلة

المخاطب في قصص الكيلاني يرى نفسه أمام بعض الفضائل تؤمر إليها، وبعض الرذائل تنهى عنها، ويحاول أن يذهب مذهب البطل الصالح في القصص. ففي قصة عبدالله البربري وعبدالله البحري، كلام البطل - وهو ابنة عبدالله الصياد - نموذج يحث المتلقي على اكتساب الفضيلة، حينما تقول:

على الإنسان أن يسعى، وليس عليه إدراك التّجاح، ولا بدّ من الصبر على قضاء الله. ويجب عليك - يا أبت - أن تحمد الله على لطفه بك؛ فقد عطف عليك قلب هذا الحَبّاز المحسن في أيام الضيق. ولا بدّ أن يأتي اليسر بعد العسر، والفرج بعد الضيق» (الكيلاني، ١٩٩٨م، ص ١٢-١٣).

فابنة الصياد في مثل عمر المخاطب، فتبين له هذه الفضائل عبر كلامها الساذج النافذ، وتؤكد على أهمية الصبر والحمد والجهد في سبيل الخير. وينهى الكاتب عن الكذب، ويذكرنا بقبحها عن لسان عبدالله البحري وأولاده؛ حيث يقول: «أنت تكذب وتريد مني أن أكذب؟! إن الرجل الذي يكذب لا وفاء له، ولن أصاحبك بعد اليوم. وصاح أولاده: هذا عجيب! هذا رجل يكذب، وما سمعنا طول عمرنا أن رجلاً يكذب». (السابق، ص ٢٤). فالمخاطب يرى نتيجة الكذب، ويفهم أن الكذب ليس عملاً اعتيادياً كما يظن بعض الناس، بل ذنب كبير. وفي قصة أبوصير وأبوقير، الحث على الفضيلة ومقاومة الرذيلة سمة بارزة في صفات الأبطال. يقول الكيلاني في صفات أبوقير: «كان هذا الجار شرهاً طمّاعاً. وهو مثال للغشّ والخداع والمماطلة: إذا حدثك كذب عليك، وإذا وعدك أخلف وعده، وإذا ائتمنته خاكن. فكرهه الناس وكفّوا عن معاملته. فكسدت صناعته، ولم يُقبل عليه أحد، وصار الناس يحذرونه ويحذرون غيرهم من معاملته» (الكيلاني، ١٩٩١م، ص ٤). فصفات أبي قير من الرذائل، وعلى المخاطب أن يتجنّب من الطمع والشره والغشّ والخداع والكذب والخيانة.

ويحث على الفضيلة عن لسان أبي صير: «وكان أبوصير يرى ماطلة جاره وهربه من أداء الحقوق إلى أصحابها، فينصح له بالاستقامة، فلا يسمع له قولاً» (السابق، ص ٨). فصفة أبي صير من الفضائل، وهي عدم الاستسلام أمام الدعوة إلى الشرّ، ونصيحة أصحاب الشرّ ودعوتهم إلى الخير.

و في قصته تاجر بغداد مواضع كثيرة من اهتمام الكاتب بالقيم التربوية. فهذه القصة تهدف إلى مذمة الكذب وعدم الوفاء والخيانة في الأمانة. فهو يعبر عن هذه المفاهيم بأسلوب بسيط وتفصيل كثير وأسئلة مرتبطة بالكلام في هامش كل صفحة، كي تعلق المضامين في أذهان الأطفال. وحينما يتكلم الكاتب عن الأعمال القبيحة التي يرتكبها صديق التاجر، يذكر المخاطب بقبح هذه الأعمال مباشرة؛ نحو ما يقوله في حين خيانة التاجر صديقه علي كوجيا: «لم يبالي التاجر كلام امرأته؛ فقد كان مشغولاً بالدنانير التي وجدها في جرة "علي كوجيا"، وأنساه فرحها بها شناعة الجرم (قبح الذنب) الذي عزم على ارتكابه» (الكيلاني؛ ب ١٩٩١م، ص ٢٦). فيشير الكاتب في هذه السطور إلى شناعة الخيانة في الأمانة.

و أيضاً ينهى عن مذمة اليأس أمام المصائب حين برأ القاضي السارق خطأً: «خرج "علي كوجيا" من المحكمة غاضباً، ولكنه لم يستسلم لليأس؛ لاعتقاده أن صاحب الحق لا بدّ أن يصل إلى حقه متى ثابر (واظب) على المطالبة به.» (السابق، ص ٤٧). فالبطل، وهو نموذج مثالي للمخاطب، لم يستسلم أمام اليأس، ويطلب حقه مهما كان صعباً.

و في رواية شنطح وصيدح، حينما ينصح الصيدح حظه، هو يقول لأخيه شنطح: «لما قابلت حظي، قدّم لي نصيحة غالية: هي أن أعمل، أن أجاهد.. لا أياس. إن فاتني التوفيق مرة، فسألقاه مرّات ومرّات» (الكيلاني، ب ١٩٨٧م، ص ١٦). فكانّ الصيدح ينصح المخاطب عبر هذه الجملة، ويدعوه إلى عدم الاستسلام أمام الفشل والمصائب.

وأيضاً حينما يشير أخوه شنطح إلى سبب النجاح هكذا: «حقاً العمل والكفاح هما سبب النجاح» (السابق).

و أيضاً يذمّ فيها الطمع والحسد في جمل بسيط؛ حيث يقول: «أخوك له حظّ. لا تحسده. لا تطلع في أن تأخذ ما ليس من حقك» (السابق، ص ٤).

و يوصي كامل الكيلاني المخاطب بالأمانة حين يتكلم عن لسان بطله في قصة التاجر مرمر، ويقول: «أنا رددت الأمانة لصاحبها، ردّ الله لي ولدي! الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً» (الكيلاني، آ ١٩٨٧م، ص ١٤)؛ ويشير إلى أنّ الله لا ينسى إحسانك بالنسبة إلى الآخرين، فيعاملك كما عاملت الناس.

وفي قصة خسرو شاه المأخوذة من روايات «ألف ليلة وليلة»، حرص الكاتب على تبين الرذائل والفضائل الخلقية، وهو يتكلم عن وسوسة الشيطان خسرو شاه وحمله على أن يشرب الشراب المنوع شربه: «ثمّ وسوس له الشيطان أن يشرب من تلك الزجاجة، فنهض الفتاة، وحذّرتّه سوء العاقبة. فاشتدّت رغبته وإلحاحه، وأصرّ على عناده. وما كاد يشرب قليلاً من ذلك الشراب حتى اختلط، وظهرت عليه أمارات الخبيل» (الكيلاني، ج ١٩٩١م، ص ٩).

ثم يأتي بنتيجة القصة ويقول إنّ سبب كل النكبات الطارئة فيها تهور خسرو شاه وحمقه الذي كان بسبب شرب الشراب المنوع: «و رأى خسرو شاه أنه كان سبب هذه النكبات كلّها؛ فرحل إلى بلده بعد أن زار ضريح الأميرة. ولم ينس - طول عمره - أن خطأ واحداً دفعه إليه حمقه كان سبباً في قتل أميرتين، وجنّي ووزير، وتعوير ملك، وتعريض أمير» (السابق، ص ٢٤).

هذه العبارات توحى بأن الاستسلام أمام وسوسة الشيطان سيستج خسارات لأتجبر، فيسعى أن يهتّم بنفسه وأن يميّز وسوسة الشيطان من نداء قلبه.

وفي قصصه للأطفال الصغار، يميّز بطل قصته بصفات قيمة؛ كما يفعل في قصة «نارادا» ويصفه بقوله: «نارادا شجاع جريء، حلوّ الحديث، يعاون أصحابه، ويعاملهم معاملة حسنة. نارادا لم يكن جميل الشكل، ولكنه كان طيب النفس، كريم الأخلاق» (الكيلاني، دت، ص ١).

فالأطفال مع صغرهم يدركون أن السيرة الحسنة خير من الشكل الجميل؛ فيحكمون على الناس على أساس أعمالهم.

ويُري الكاتب المخاطب عاقبة الغدر والمكر في قصة دمنة وشترته، وفي نهاية القصة يأتي بكلام عن لسان ميمون، قاضي الغابة: «مسكين أنت يا دمنة! كيف أضلك الحسد وأغواك، وحير عقلك وأعماك؟! فظلمت نفسك، وخذعت أسامة، غدرت بصاحبك، وأهلك أخاك؟ كنت يا دمنة بارعاً ذكياً، وكان عيشك سائغاً هنيئاً؛ ثمّ غيرك الحسد، فبدل ذكائك غباءً، وسعادتك شقاءً، فأصبحت تاعساً شقيماً» (الكيلاني، ٢٠٠٢م، ص ٢٦).

فالحسد يغيّر حياة الإنسان نحو الأسوأ؛ وهذا ما يستنتجه المخاطب من النص.

ويشير الكاتب إلى جزاء الوفاء والمروءة والصدق، في قصة العرنديس؛ حيث أعجب السلطان «بشجاعة المتهمين ووفائهم، فأمر لكلّ منهم بمكافأة كبيرة على صدقه ومروءته (أي: طيب نفسه وكرم صفاته)، واتخذ العرنديس نديماً له منذ ذلك اليوم» (الكيلاني، ب ١٩٨٩م، ص ١٥).

ويحثّ على الصبر والتوكل على الله في قصة الوزير السجين؛ حيث ينصح الوزير زوجته وهو في السجن: «ولكنّي أوصيك بالصبر والثقة بالله، لينجح سعيّنا، ويتم فوزنا. وحذار أن يتسرّب اليأس إلى قلبك! فإنّ اليأس طريق الخذلان، والصبر مفتاح الفرج» (الكيلاني، ١٩٩٧م، ص ١١).

فهذه المعاني كثيرة في قصص كامل الكيلاني. فهو دوماً ينصح المخاطب بالصبر أمام الصعوبات عبر معاملات الأبطال ومغامراتهم وحوارهم. وهو يشير إلى عاقبة الظلم في حق الرعية في القصة نفسها. وأما قصة الأرنب الذكي، فهذه القصة تهدف إلى أن لكل مآزق مخرج، وباستخدام العقل يمكن النجاة من المهالك.

٥. البعد عن الخوف والرعب والقلق

يتنزه الكيلاني كل فرصة لبيان قبح الخوف والجبن؛ فقصة العلبة المسحورة مليئة بهذه المواقف. فالصادق - بطل القصة - هو جبان، وعرف بين أصدقائه بـ"فتى الجبان". وأصدقاءه كلما استطاعوا مشاكسته ومعاكسته، لم يألوا جهداً في ذلك. «.. كان صادق يتحمل السخرية من زملائه صابراً، لا يثور. كان يخشى أن تزيد شكواه من معاكستهم له، الانتقام منه» (الكيلاني، ١٩٨٨م، ص ٦).

وبعد أن قابل شيخاً أهدها إلى الطمأنينة والاتكال على النفس، تغيرت أخلاقه، وتغيرت معاملة زملائه إياه: مرّت الأيام والأسابيع، والفتى صادق يزداد ثقةً بنفسه، اعتدّ بشجاعته، وأمن بقوته، فلم يعد للخوف سلطان عليه. دُهِش أصحاب صادق لما رأوه من تغيره وتبدل حاله. قدروا استطاعته أن يكتسب خصال الشجاعة والجرأة وقوة العزيمة. نسوا خصال صادق القديم واحترموا خصال صادق الجديد. عامله رفاقه ورؤساؤه في المصرف الذي يعمل فيه معاملة حسنة تتفق مع تلك الخصال التي تحلّى بها (السابق، ص ١٥).

فيشجع كامل الكيلاني المخاطب على البعد عن الخوف والجبن وعلى اكتساب الشجاعة والجرأة. وهكذا شأن كامل الكيلاني في أكثر قصصه، أنه يهتم بالقيم الأخلاقية والتربوية، كلما فسح له المجال. ونشاهد البطل في قصصه متحلّ بالقيم الأخلاقية السامية. وهو لا يألُ جهداً في تبين القيم التربوية للأطفال في أسلوب سهل رشيق يفهمه ويحبه كل الأطفال.

النتيجة

الطفل في حاجة لأن يتعلم كيف ينبغي أن يسلك. وللقصّة دورٌ أساسيٌّ في نموّ السلوك ونشوء القيم التربوية لديه. كامل الكيلاني من الكتاب الذين اهتموا بالقيم التربوية، ويسعى لكي ينتقل هذه القيم إلى الأطفال على قدر استطاعته. فهو يشرح للطفل دقائق الحياة وأسرار النفوس لتستتير له السبل، فيمشي على الهدى. كما أشارت هذه الدراسة إلى بعض قصصه التي يرى الطفل فيها عاقبة الحسد والحقد ونهاية الغدر، وكيف تُنزل هذه الخصال المذمومة أصحابها إلى أخطّ دركات المهانة.

ولعلّ دافع الكيلاني الأول للكتابة هو الأهداف التربوية الأخلاقية. فهو يهتم قبل كلّ شيء ببيان القيم الدينية والروحية والخلقية في قصصه، وهو يرى سيادة لهذه القيم. وهو أيضاً يهتم بالفضائل الأخلاقية؛ فيحثّ المخاطب لاكتسابها في كلّ فرصة بين سطور قصصه، مهما كانت ضيقة، أو كانت إشارته خاطفة. ثمّ هو يهتم بالقيم الاجتماعية، فيحثّ المخاطب الطفل باهتمام واحترام إزاء المجتمع وبالذّفاع عن قيم المجتمع وحفظها. فهو كعمّالٍ حنون يسعى في تربية أبناء شعبه بكلّ ما في يديه من الإمكانيات. إن مجموعات الكيلاني القصصية تسعى لتحقيق هدف تربوي. فغاياته غرس الفضائل والمثل العليا التي اختارتها الجماعة، وتوجيه الطفل العربي نحو أنماط السلوك والقيم الاجتماعية والمعايير الأخلاقية، والتمسك بكلّ ما هو إيجابي منها، ونبتذ كلّ ما هو سلبي.



المصادر والمراجع

١. بريغش، محمد حسن. (١٩٩٦م). *أدب الأطفال، أهدافه وسماته*. (ط ٢). بيروت: مؤسسة الرسالة.
٢. البكري، طارق. (٢٠٠٦م). *كامل كيلاني، رائداً لأدب الطفل العربي - دراسة في اللغة والمنهج والأسلوب*. لبنان: دار الرقي.
٣. حلاوة، محمد السيد. (٢٠٠٠م). *الأدب القصصي للطفل (منظور اجتماعي نفسي)*. إسكندرية: مؤسسة حورس الدولية.
٤. خريسات، صالح. (١٤٢٤هـ). «في مفهوم أدب الأطفال وعناصره». *آفاق الثقافة والتراث*. شعبان ١٤٢٤هـ. العدد ٤٣.
٥. خلف الله، سلمان. (١٩٩٨م). *الحوار وبناء شخصية الطفل*. الرياض: مكتبة العبيكان.
٦. زلط، أحمد. (١٩٩٤م). *أدب الطفولة بين كامل كيلاني ومحمد الهراوي*. القاهرة: الشركة العربية للنشر والتوزيع.
٧. الشماسي، عيسى. (١٩٩٦م). *القصة الطفلية في سورية*. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
٨. قرانيا، محمد. (٢٠٠٣م). *قصائد الأطفال في سورية*. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
٩. الكيلاني، كامل. (١٩٩١م). *أبوصير وأبوقير*. القاهرة: دار المعارف.
١٠. _____ (ب ١٩٩١م). *تاجر بغداد*. القاهرة: دار المعارف.
١١. _____ (ج ١٩٩١م). *خسرو شاه*. القاهرة: دار المعارف.
١٢. _____ (آ ١٩٨٩م). *الأرنب الذكي*. القاهرة: دار المعارف.
١٣. _____ (ب ١٩٨٩م). *العرندس*. القاهرة: دار المعارف.
١٤. _____ (م ١٩٩٨م). *عبدالله البري وعبدالله البحري*. القاهرة: دار المعارف.
١٥. _____ (م ١٩٨٨م). *العلبة المسحورة*. القاهرة: دار مكتبة الأطفال.
١٦. _____ (آ ١٩٨٧م). *التاجر مرمر*. القاهرة: دار مكتبة الأطفال.
١٧. _____ (ب ١٩٨٧م). *شنطح وصيدح*. القاهرة: دار مكتبة الأطفال.
١٨. _____ (م ٢٠٠٢م). *دمته وشتريته*. القاهرة: دار مكتبة الأطفال.
١٩. _____ (م ١٩٧٣م). *صراع الأخوين*. القاهرة: دار المعارف.
٢٠. _____ (دون تاريخ). *نارادا*. القاهرة: دار المعارف.
٢١. _____ (م ١٩٩٧م). *الوزير السجين*. القاهرة: دار المعارف.
٢٢. نجيب، أحمد. (١٩٩١م). *أدب الأطفال علم وفن*. القاهرة: دار الفكر العربي.